فرص الإبداع في تأليف وإنتاج أعمال الموسيقى العربية في ظل عولمة رقمية متعددة الثقافات

أ. ريم حنضل (فلسطين)[1]

مقدمة

يهدد التراث العربي الموسيقي الكثير من المخاطر في عصرنا الحالي. وإختلفت هذه المخاطر كثيرا عنها في العقود السابقة. ولفهم هذه المخاطر وبالتالي التفكير في أفضل السبل لمجابهتها يجب أن نستعرض التغييرات التي تتعرض لها الشعوب العربية وبالتالي نحدد التأثيرات المحتملة، إيجابية كانت أم سلبية، على العلاقة بين الشباب العربي والتراث الموسيقى العربي.

هناك تغييرات متلاحقة في مجتمعنا العربي من نواحي سياسية واقتصادية بشكل اساسي وهناك ايضا إزدياد إنتشار التكنولوجيا ووسائط التواصل الإجتماعي.ولا يمكن أن ننسى تطور جديد يحدث في هذا العالم وهو "العولمة الثقافية". بالرغم من أن فكرة هذه "العولمة" ليست جديدة ولكنها أخذت تظهر خلال الأعوام القليلة الماضية بشكل مختلف وقوة تغلغل كبيرة وخاصة في المجتمعات الشبابية والمدنية.

إن المخاطر التي يتعرض لها التراث العربي الموسيقي هي مماثلة للمخاطر التي يتعرض لها التراث الثقافي العربي بجميع مجالاته. وهذه المخاطر ناتجة عن تحديات كبرى تواجهها الشعوب العربية كافة. وهذه التحديات هي:

١. التحديات السياسية: إن الأوضاع السياسية التي تمر بها الأوطان العربية مثل فلسطين وسوريا والعراق وغيرها تجعل من توجه الشباب للتراث الموسيقي العربي عرضة للتردد وعدم الإبداع أو وضعه بأولويات التقدم الفني لدى الشباب، إلا إذا كان هذا في إطار الأعمال الموسيقية الوطنية والتي تدعم أفكارا سياسية.

٢. التحديات الإقتصادية: إن إنتشار وباء كوفيد-١٩ (كورونا) بالإضافة للأوضاع السياسية جعل الوضع الإقتصادي يسوء جدا في كثير من البلاد العربية. وبالطبع تكون الفنون والموسيقى في أسفل قائمة التمويل والأولويات. وهذا يبعث برسائل إلى الشباب الموسيقي العربي تؤثر على إنتاجهم وتطورهم وإنتمائهم.

٣. تحديات العولمة الثقافية: مع التطور الكبير في تكنولوجيا المعلومات والإتصال فإن الشباب الموسيقي في الوطن العربي يستطيع الإضطلاع بسهولة وآنيا على ثقافات موسيقية من شعوب مختلفة. وبالرغم من أن هذه ثقافة جيدة إلا أنه تنتج

[1] مؤلفة موسيقى وأستاذة موسيقى المديرة التعليمية – أكاديمية بيت لحم للموسيقى– مؤلفة موسيقى

كثيرا مزيج من الموسيقى والتقدم تذوب فيه الهوية العربية. وهذا يجعل الشاب العربي ينخرط في في دوامة من الحياة يجد نفسه فيها معرضا للتأثر بثقافات وافكار ومهارات مختلفة تجعل منه طامحا لأن يتعرف على مثل هذه التغييرات التي تعتبر جديدة ودخيلة بالنسبة له.

وضمن هذا البحث يتم دراسة مفهوم الهوية العربية من منظور الموسيقى والفن مما يؤدي إلى تنشيط وإحياء التراث الموسيقي العربي، ويناقش أفضل السبل التي يمكن للشباب العربي ان يتبعها لأجل أن يحقق طموحه في الإبداع الموسيقي الذي يجابه هذه التحديات في هذا الزمن الصعب.

الهوية العربية الموسيقية

الهوية الثقافية هي هوية الانتماء إلى شعب. إنها جزء من تصور الشخص لشخصيته وإدراكه لذاته وإرتباطه بالمواطنة أوالعرق أو الدين أو الطبقة الاجتماعية أو الجيل أو المكان أو أي نوع من الإنتماءات الاجتماعية التي لها ثقافتها المميزة. ولهذا تكون الهوية الثقافية مميزة للفرد وأيضا للمجموعة التي ينتمي إليها.

على الرغم من أن التراث والثقافة التي يتميز بها شعب ما يمكن أن تؤثر على طبيعة وأسلوب الموسيقى لذلك البلد، إلا أن خبرة ممارسة الموسيقى من تأليف وعزف هي إتجاه عالمي يوفر الفن والمتعة الموسيقية للجميع. ومع ذلك تبقى هناك فجوة بين الأداء الموسيقي الفني وبين التأليف الموسيقي. ولذلك من أهم التحديات التي تواجه الفن والموسيقى العربية حاليا هي إيجاد تواصل أو إطار يتم الإتفاق عليه بين مؤلفي الموسيقى ومنتجيها. مثل هذا الإطار قد يشمل التعليم الموسيقى (ومن الأفضل أن يتم ذلك) وبهذا يتم تعزيز مبدأ الشمولية وإثراء المجتمع.

وفي العصر الحالي إزدادت التيارات الأجنبية في الحياة الثقافية في الدول العربية وليس فقط في الحياة الإقتصادية والإجتماعية والسياسية. وبهذا أصبحت الهوية الثقافية هدفا لمثل هذه التيارات اخذت تترك آثارها عليها. وهذا صحيح أيضا بالنسبة للموسيقى العربية، ولكن كان هذا التأثير على الهوية القومية والتراث الفني الموسيقى محدودا وليس مثل قطاعات ثقافية أخرى في المجتمع العربي. ولكن التحديات التي تواجهها اليوم الهوية الموسيقية العربية تزداد بشكل غير مسبوق تاريخيا وأهكم ما يميز هذه التحديات أنها تتغير نسبيا بسرعة تحت تأثير التطرزات السياسية والإقتصادية والإجتماعية في العالم بشكل عام في بلادنا العربية بشكل خاص.

وبالتحديد يواجه الموسيقيون العرب الشباب هذه التجديات مباشرة. وتتأثر هويتهم الثقافية الموسيقية بعوامل عدة يمكن تصنيفها كما يلي:

- ✓ **المواطنة والإنتماء: أهم صفة للموسيقار العربي هي الإنتماء للشعب العربي بشكل أساسي وانتمائه لشعب عربي معين في بلادنا العربية. فهوية الشاب الموسيقي المصري تبقى غربية وإنتمائه للشعب المصري هو تجسيد محدد لهذه المواطنة. وبهذا تظهر الهوية العربية الموسيقية بشكل شامل ولكن بألوان مختلفة من دولة عربية إلى أخرى.**
- ✓ **التراث الثقافي: وفي المجال الثقافي الواسع هناك تباين أكثر في التنوع في الهوية الثقافية للعرب، مثل إختلافات في التراث والحرف الفنية والعادات والرقص التقليدي والطعام والمناسبات الإجتماعية.**
- ✓ **الدين والتأثيرات الدينية: تمتاز الهوية الثقافية العربية بثباتها من الناحية الدينية ولا تتغير كثيرا بسبب ثبات الثقافة الدينية (وهذا بغض النظر عن وجود بعض التيارات الدينية التي تزداد في ضغوطها للتأثير على النشاطات الموسيقية للشباب العرب). ولكن إنفتاح جيل الشباب العرب على الثقافة الموسيقية العالمية جعل هذه التأثيرات تتميز بكونها متغيرة بمستوى قدرتها على الإبداع الموسيقي بشكل مختلف بين المجموعات المختلفة من الشباب الموسيقيين العرب.**
- ✓ **العائلة والحياة الشخصية: وبالطبع هذا عامل أساسي ولا يمكن تجاهله، فحيث أن الموسيقى هي تعبير شخصي وعاطفي وإجتماعي ولهذا يبقى وجود هذا العامل واضح وثابت ولا يتأثر كثيرا بالتحديات الأخرى.**
- ✓ **اللغة والمجتمع: وهذا العامل هو أساسي ايضا ويمكن إعتباره مثل عامل العائلة ولكنه على مستوى المجتمع، قبالرغم أن اللغة العربية هي نفسها ولكن الإختلاف الملحوظ في اللهجات حسب المجتمع الذي ينتمي إليه الموسيقي الشاب تتأثر موسيقاه بها أيضا.**
- ✓ **الزمن والمعاصرة: الإنتماء الزمني عامل أساسي بين المبدعين من الموسيقيين الشباب العرب. هذا يشكل تحدي واضح وقوي عندهم حول إذا ما يواكبوا الموسيقى المعاصرة وبالتالي أشكالها وأنماطها أم يلتزموا بما كان معروفا قبل عقود. للفترة الزمنية تأثير واضح على الهوية الموسيقية العهربية.**

الشكل التالي يبين هذه العوامل.

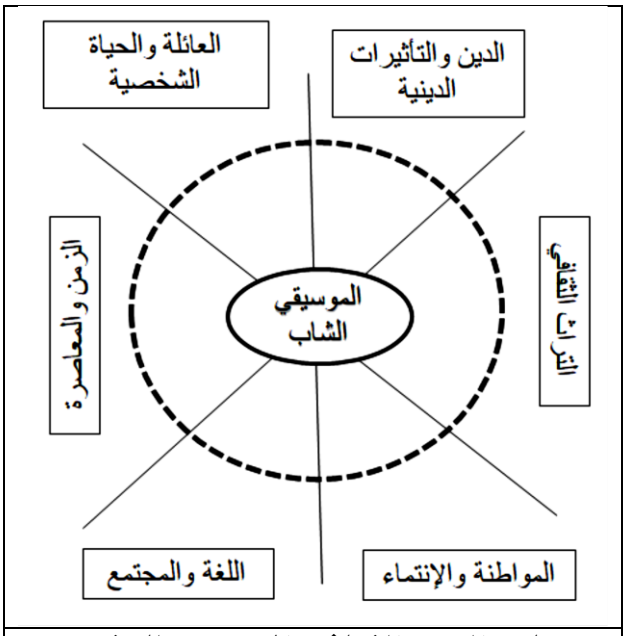

حلقة الهوية الثقافية الموسيقية للمثقف العربي

أهمية الهوية الثقافية الموسيقية

إن المعزوفات والأغاني لها دور كبير في الحياة الثقافية. وهي ترتبط إرتباطا جوهريا بها. فهي مثل الوعاء الزمني الذي يحتوي على تاريخ وتطور الشعب والمجتمع. كلمات الأغنية ترتبط باللغة وحتى اللهجة المتبعة، وهي تروي مشاعر أو مواقف ترتبط عادة بحدث ما أو موقف معين في ثقافة المجتمع. وبهذا تحتوي الموسيقى هذا الموقف أو الشعور تاريخيا ومجتمعيا.

ولا شك أن الأغاني مصدر من تعليم اللغة بطريقة أو أخرى، وليس فقط لمفردات وإنما لمصطلحات أو جمل شائعة في الثقافة المجتمعية، وبهذا تصبح الموسيقى عامل جيد لتثبيت ملامح الثقافة المجتمعية.

ولابد من الإشارة إلى أن من أهم وسائل التواصل الأولي في الحياة مع الأطفال تكون من خلال الموسيقى. فأغاني الأمهات والآباء لأطفالهم وسيلة مثالية لتعليمهم اللغة والحديث.

في الحياة الثقافية لشعب ما هناك دور خاص للموسيقى تعزف وتغنى في العادات الإجتماعية مثل الزفاف وغيره. وهذا أسلوب عالمي للإحتفال بالمناسبات: الغناء والرقص والعزف. ترتبط كل لحظة نحتفل بها في حياتنا تقريبًا بالموسيقى. فالثقافة الموسيقية

حاضرة باستمرار في حياة الشعوب وأكثر دليل على ذلك يوجد في مختلف البلدان مهرجانات وأحداث كاملة تتمحور حول مسيرات الموسيقى والاحتفال.

والموسيقى تؤدي إلى تأثيرات ثقافية أخرى، فمثلا هي تؤثر على طريقة التعامل والإحتفالات وحتى الملابس وتطورها. الملابس الفولكلورية لا تتغير وإنما قد يضاف إليها ألوان مختلفة أو يتم تصميم ملابس أخرى ترتبط بحفلات موسيقية أو نشاطات فنية تصاحيبها الموسيقى. كان هذا محصورا في المسرح الموسيقي نمثل الأوبرا والباليه، ولكن ذلك إمتد إلى أبسط أنواع الموسيقى والأغاني من خلال إنتاج وشيوع موسيقى الفيديو كليب بمختلف أنواعها. ولهذا نرى أن الموسيقى والأغاني المسجلة وبالطبع إن إنتاج الموسيقى بأشرطة فيديو وسيلة رئيسية لتحديد إتجاهات الملابس والتسوق بالإضافة إلى منتجات ثقافية أخرى فنية أو منزلية أو غير ذلك.

هناك أنواع كثيرة من الموسيقى ترتبط بجغرافية الشعب وتتأثر بها. موسيقى مجتمع معين يعيش على الجبال قد تختاف في نمطها وأسلوبها عن الذين يعيشون في السهل. فمثلا موسيقى وأغاني المحتمع الذي يسكن في جبال الأطلس في المغرب العربي تختلف بكل وضوح عن الموسيقى وأغاني صيادي اللؤلؤ في الكويت مثلا.

وكما في شعوب أخرى، تجكع الموسيقى العربية والأغاني الناس معا حتى لو إختلفت طبقاتهم ومستواهم الإقتصادي والسياسي والتعليمي. فبالرغم من أن اتجاهات الموسيقى تميل إلى أن ترتبط بجيل معين ولكن هناك أنواع من الموسيقى تشكل الهوية الثقافية بينما تخلق التضامن عبر العقود والفئات العمرية وحتى البلدان. ويمكن القول بحق أن الموسيقى تجعل الناس يتحدوا، حيث تجمع الفقراء والأغنياء، الكبار والصغار، إلخ.

ومن أهم تأثير للموسيقى في هويتنا الثقافية أنها تخلق دائما التحدي للجدل والمناقشة الفكرية، فالموسيقى هي إبداع (بالتأليف كان أو بالإداء) ولهذا يظهر إجمالا مع كل جيل شاب اتجاه موسيقي جديد يدفع الأجيال الأكبر سنا أن التفكير في تفهم جيل الشباب وإحترام رغباتهم وأفكترهم. وهذا يرتبط مباشرة عند الشباب الموسيقي العربي حيث يبدأوا في إكتشاف الموسيقى لأنفسهم ويقرروا ما يحبوه وما لا يحبوه. وبهذا يتوقفوا عن محاكاة والتمثل بالجيل السابق في الفنون الموسيقية وتكوين هويتهم الموسيقية الخاصة. أي بمعنى آخر أن الموسيقى تساعد الشباب في العثور والتعرف على هويتهم الثقافية أكثر.

تحديات أساسية

إن أكثر تحدي مباشر للشاب الموسيقي هو شعوره بخصوصية الإبداع الموسيقى، أي مدى حريته في التعامل مع الموسيقى إداءا كان أم تأليفا. فإرتباطه المباشر بسبب بيئته وخلفيته

توجهه نحو أسلوب معين في الإبتكار وبالتالي تكون موسيقاه معبرة عن شخصيته وخصوصيته على المستويين: الفردي والمجتمعي الذي يعيش فيه. ففي الواقع إن مسألة الخصوصيات المحلية والمجتمعية انعكست على الابتكار الموسيقي، ويمكن أن نلاحظ أن ذلك إنعكس على أساليب الإداء المختلفة للموسيقى بين طبقات معينة من الشباب الموسيقي. مثلا إختلفت طريقة عزف المقامات أو إستخدامها في تآليف موسيقية جديدة مع طرق أخرى إتبعها شباب موسيقي من منطقة أخرى وذا خلفية تراثية مختلفة.

ومع نهاية القرن العشرون وإطلالة القرن الحادي والعشرين ظهر نقاش وجدل طويل حول ما هو المقصود بالحداثة الموسيقية العربية. قام بعض الموسيقيين والباحثين في تشجيعهم لتحديث وإدخال أساليب جديدة، معظمها مستوحى من الموسيقى الغربية، وإعتبروا أن ذلك هو تطور طبيعي ودليل على التقدم الفني. وظهر ذلك جليا في ما يتعلق بالأغنية وسبل تأليفها وأدائها. ولكن عدد آخر من الباحثين والموسيقيين أصروا على أنه من الضروري المحافظة على التراث الغنائي والموسيقي وإحياء القوالب الغنائية التقليدية المتقنة منها والشعبية.

وصاحبت التغيرات السياسية تغيرات فكرية بشكل قد يكون تطبيقها يوحي بشيء من العجالة وليس التشجيع وهذا ينعكس سلبا على الهوية الثقافية. فمثلا ظهور تطور سياسي معين في مجتمع ما يدخل فرص مختلفة لنشر فكر جديد وخاصة من خلال التواصل الإجتماعي، مما يتطب من الشباب الموسيقي أن يتقبل بعض من هذه الأفكار أو يمارس تطبيقات فنية جديدة للحفاظ على إرتباط موسيقاه في التغيرات المجتمعية في بلده. ولأن هذه التغيرات تتركز حول تغيرات فكرية عالمية فقد راجت معها فكرة التراث العالمي أو الثقافة الإنسانية مما جعل الإبداع الموسيقي يكاد ينحصر في نمط واحد، وهذا ما أطلق عليه لقب العولمة الثقافية. وفي ذلك لا شك خطر على الهوية الثقافية العربية التي تتميز بسمات خاصة بها تميّزها عن بقية الهويات للشعوب الأخرى في العالم.

من المعروف علميا أن الموسيقى العربية تبقى من أكثر أنواع الموسيقى ىتنوعا في القوالب والمقامات. ولهذا تبقى الموسيقى العربية من أكثر أنواع موسيقى الشعوب عرضة للتجديد والانفتاح على أساليب جديدة غريبة عنها وأن تتحرر من الأشكال والقوانين الموسيقية العربية الموروثة وتقاليدها. وفي العصر الحالي يسهل ذلك لأن العالم يشهد بشكل عام ذوبان حقيقي وخطر لمكونات الهوية الموسيقية الإبداعية. وأصبح من المألوف ظهور مدارس وتيارات موسيقية حديثة تفتح المجال على الدوام لرياح التغيير. ولحسن الحظ أن هذا التغيير ليس دائما سلبي، فبعضه يتميز بكونه مدفوعا بتجديد عقلاني وفكري دون المساس بالهوية العربية وخصوصيتها.

ولكن لا يمكن أن ننسى أنه بالرغم من أن الفنون الموسيقية ترتقي وتتجدد أساليبها من خلال إستلهام ضروري لتكنولوجيا المعلومات والإتصالات وتكنولوجيا الأصوات المتوفرة في عصرنا هذا إلا أن ذلك محفوف بالمخاطر لإنتاج موسيقي غير مقبول لكونه يمس فنا يرتبط بالروح والوجدان وبوفر الجمال الفكري والفني للمجتمع.

ولهذا يجب أن يتم أسلوب الإنفتاح والتنوع الثقافي في وجدانٍ وتقبلٍ ثقافي منفتح وتشجيع التبادل والحوار والنقد الثقافي الإيجابي مع الآخر موسيقيا وثقافيا.

ويعتبر هذا التحدي من أكبر وأخطر التحديات على الموسيقي العربي الشاب: تحقيق التوازن الفني والفكري والوطني بين فكره وإبداعه الموسيقي في ظل استكشاف فرص التجديد ولو مستوحاة من إبداعات وأفكار عالمية وبين أن يبقى منغلقا على الفكر والأساليب الموسيقية العربية التقليدية كما عرفها أسلافه لأنه يرى في التجديد نوعا من الغزو والتبعية للآخر فكريا وثقافيا. وللأسف يصر البعض على هذا الرأي ليبقى التراث الموسيقى العربي كما عرف قديما بحجة صون الهوية والحفاظ عليه.

التقدم المتزايد في التكنولوجيا وإستخدامها في التأليف والإداء وإدارة الأعمال الموسيقية يحقق تأثير عميق على فن الموسيقى في القرن الحادي والعشرين. لقد غيرت التكنولوجيا طريقة نقل الموسيقى وحفظها وسماعها وأدائها وتأليفها. وأيضا تشارك التكنولوجيا في تعزيز قاعات الحفلات الموسيقية ، وتسجيل وبث الموسيقى ، وتصميم وبناء الآلات الموسيقية. وبالرغم من أن هذا يشكل دعما للموسيقى وليس تحديا ولكن إستخدامها سيوفر فرصا مختلفة للموسيقيين العرب الشباب في الإبداع الموسيقي ويبقى التحدي عندهم هو إختيار الفرصة والموارد المناسبة لمؤلفاته من هذه التكنولوجيا.

نتيجة الدراسة

تمت الدراسة على ثلاث مراحل:

١. مراجعة ما هو متوفر من الدراسات التي تعالج نقاط تتعلق بموضوع هذا البحث
٢. اللقاء الفني بشكل ورشة عمل وعصف ذهني مع مجموعة من الموسيقيين الشباب لمناقشة الموضوع
٣. إستخدام إستبيان لجمع المعلومات من عينة من الموسيقيين الشباب الفلسطينيين

نتيجة الدراسة كانت كما يلي:

- ✓ هناك تمييز واضح بين إستخدام التكنولوجيا في الإبداع في الموسيقى: يعتقد معظم من شاركوا في الدراسة أن إستخدام التكنولوجيا في التأليف والإبداع مفيدة أكثر في الموسيقى الغربية منها في الموسيقى العربية، و بقدر متساو في العزف والتسجيل وإدارة الحفلات.

- ✓ يجب توفر فرص للمشاركة في الموسيقى وليس فقط للموسيقيين: إشراك المجتمع إيجابيا وفعليا سيزيد من الإبداع الموسيقي.
- ✓ يجب توفير برامج وفرص في نقل المهارات والخبرات في الإبداع والتأليف الموسيقي بين الشباب.
- ✓ يجب القيام بدراسات مركزة حول تعريف مدى إدخال ثقافات أخرى إلى الثقافة الموسيقية العربية
- ✓ القيام بدراسة القوالب الموسيقية العربية وتركيبها والنظر في إيجاد قوالب أخرى أو قوالب منوعة حتى تضم ويتفاعل معها طالبة ومعلمين.

التوصيات

١. ونتيجة النقاش ودراسة المراجع تستخلص هذه الدراسة التوصيات التالية:
٢. التحضير للتغيير: الاستعداد لدراسة مفاهيم موسيقية جديدة
٣. إستخدام البرامج والموارد عبر الإنترنت
٤. إنشاء منتدى للموسيقيين الشباب الأصدقاء عبر الإنترنت والتواصل من خلاله
٥. إستخدام النقاش الفني مباشرة وعن بعد لتبادل الآراء الموسيقية

الباحثة:
الأستاذة ريم حنضل

هاتف: ٠٠-٩٧٠-٥٩-٩٢٦٢٠٥٩

إيميل: rehandal@yahoo.com

□

المراجع

العنوان	المؤلف	النشر والستة
تأثير العولمة والهوية والحداثة على الموسيقى العربية	د. إلياس بودن – تونس	مجلة الموسيقى العربية من المجمع العربي للموسيقى أكتوبر ٢٠٢٠
عن أزمة الموسيقى العربية	هالة نهرا	السفير ٢٠١٨
التجديد في الموسيقى العربية بين الهوية والابداع	علي الأحمد	صحيفة الوطن السورية - ٢٠١٩
الحداثة والتراث " الحداثة بوصفها إعادة تأسيس جديد للتراث	عبد المجيد بوقربة	الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ١٩٩٣
التحوّل الثقافي: النهضة العربية والموسيقى خيار التجديد المتأصّل	بولس الخوري	المجمع العربي للموسيقى، عمّان، الأردن، ٢٠٠٣
أثر العولمة على الهوية الموسيقية العربية	محمد علي الملاح	مكتبة دار النّور، القاهرة ٢٠١٣
قراءة في علاقة الموسيقى العربية المعاصرة بمفهوم التراث والحداثة	عزيز الورتاني	مجلّة الموسيقى العربية، عمان، الأردن، ٢٠١٣.
Cultural identity and using music in the intercultural educational process	María del Mar Bernabé Villodre	1877-0428 © 2014 The Authors. Published by Elsevier Ltd.